آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة الثامنة عشرة، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٦-١٤٣٧ هـ .ق، ٨٩-١١٤

التطور الدلالي في المفردات القرآنية؛
دراسة تطبيقية في «الخشوع» و«الرسول» و«التسبيح» أنموذجا

حميدرضا ميرحاجي*

سميرا قنبري**

الملخص

يدرس هذا البحث، بعض المفردات القرآنية من منظار دراسة لغوية دلالية تهدف إلي تبيين أثر الإسلام في تغيير وتطوّر دلالات الألفاظ عما كانت عليه في العصر الجاهلي. وقد بيّنا أنّ الإسلام لم يأت بألفاظ جديدة غير معروفة لدي مخاطبيه وإنما حمل الألفاظ القديمة بالمعاني الجديدة واستعملها بصورة جديدة. قد خضعت هذه المفردات في انتقالها من معانيها الوضعية إلى معانيها الأخرى لمظاهر التطور الدلالي كالتخصيص والتعميم وهما مظهران رئيسان في موضوع التطور الدلالي. وقد تبين موضوع تطور هذه الكلمات الثلاث (الخشوع، الرسول، التسبيح) أن التطور بعض الأحيان يحدث في مجال تضييق دلالة اللفظ كما في لفظة الخشوع والتسبيح وبعض الأحيان نحو رقيه كما في لفظة الرسول.

الكلمات الرئيسة: *القرآن الكريم*، اللفظ، المعنى، الدلالة، الشعر الجاهلي.

١. المقدمة

من البديهي، أنّ للقرآن الكريم أثراً كبيراً على اللغة العربية نفسها ولهذا نعتقد أن

* أستاد مشارک فی اللغة العربية وآدابها، بجامعة العلامة الطباطبائی mirhaji_sayyed@yahoo.com
** ماجستير فی اللغة العربية وآدابها، بجامعة العلامة الطباطبائی (الكاتبة المسؤولة) sghanbari@ymail.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٧/١٩، تاريخ القبول: ١٣٩٤/٩/٢٨

القرآن الكريم قد قدّم لنا ثروة لغوية جديدة؛ فبنزول *القرآن الكريم* حدث تغيير كبير في الحياة الدينية والاجتماعية للأمة العربية وما كان ذلك إلا بتأثير لغته العالية. ولما كانت اللغة العربية هي لغة *القرآن*، فقد تواصل علماء العربية على العناية بها والحفاظ عليها؛ إذ أن *القرآن الكريم* مصدر أدبي متفرد؛ وأنّ للقرآن الكريم دوراً عظيماً في تطور دلالات طائفة كبيرة من الألفاظ وتوسيعها أو تضييقها. فيعدّ البحث الدلالي من أهمّ وسائل الكشف عن أسرار لغة *القرآن الكريم* كما يعتبر أحد المباحث المهمة التي تركت أثرها الكبير في فهم النصوص والحصول على نية صاحب الكلام.

فيعتبر موضوع التطور اللغوي من الموضوعات التي شغلت بال كثير من اللغويين خاصةً علماء اللغة العربية؛ كما يعدّ فرع من فروع علم اللغة ومبحث من أهمّ مباحثها. يعمد هذا الموضوع إلى دراسة الكلمات صوتياً ودلالياً وملاحظة التطور الذي طرأ على اللفظ. إذ كلّ عالم لغوي يعرف أن التطور من أهمّ سجايا اللغات واللغة العربية واحدة من لغات العالم. اللغة ككائن حيّ تنمو وتترعرع وتشبّ وتشيخ وقد تموت. اللغة العربية تتطور كسائر اللغات؛ فقد اضيفت إليها مفردات جديدة ومعربة ودخيلة كما أميتت مفردات منها واندثرت. ترجع أهمّ التطورات اللغوية إلي قسمين رئيسين: التطورات المتعلّقة بالصوت والتطورات المتعلقة بالدلالة. فالمقصود بالتطور، حصول التغيير والتبدّل في الأصوات والمدلولات. لا يهمّنا، هنا، الحديث عن التطور الصوتي، بل تختصّ دراستنا بالتطور الدلالي للمفردات.

ترتكز المقالة على دراسة شاملة في بعض المفردات القرآنية وقد ترك الباحث الألفاظ التي قد تغيّرت معناها علي حسب الوضع الشرعي كالصلاة والزكاة والحج وغيرها؛ ففي هذه الدراسة بعد اختيار المفردة القرآنية، بدأنا في الخطوة الأولى بدراسة المفردة في الشعر الجاهلي. فجئنا بالشواهد الشعرية من أشعار العصر الجاهلي واعتمدنا عند اختيار الشواهد واستخراج معاني المفردات، على سياق القصيدة ومناسبتها والقرائن اللفظية في البيت. والشعراء الذين اعتمدنا على أشعارهم، هم الذين لم يدركوا الإسلام. وفي الخطوة الثانية، جئنا ببيان الاستعمال القرآني للمادة مستفيداً من آراء أصحاب المعاجم القرآنية، إضافة إلى ذكر آراء المفسرين خاصّة تفسير الميزان وتفسير مجمع البيان.

ثم تناول الباحث معنى اللفظة لغةً فعرضت دلالات ذُكرت في المعـــاجم والقـــواميس. هكذا، قد تابع موضوع التطور الدلالي للمفردات بين العصرين «العصر الجاهلي إلى نهايـــة عصر نزول *القرآن الكريم*» وما يطرأ عليها من تطورات دلالية. وفي ختام دراســـة كـــلّ مفردة جيء ببعض الاستنتاجات وحدّد المظهر الدلالي الذي يؤدّي إلى تطور دلالة اللفـــظ في *القرآن الكريم* بالنسبة إلى استعماله في الشعر الجاهلي. وفيما يلي دراسة في المفـــردات هذه: الخشوع، الرسول والتسبيح.

٢. خلفية البحث

وجدنا بعض الكتب والرسائل والمقالات حول هذا الموضوع نذكر منها:

كتاب *التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم* دراسة دلاليه مقارنـــة لعودة خليل أبو عودة.

أطروحة «التطور الدلالي للالفاظ في النص القرآني» لجنان منصور كـــاظم الجبـــوري وهي دراسة بلاغية.

رسالة «التطور الدلالي لألفاظ أركان الإسلام في *القرآن الكريم*» لزينة قرفة.

مقالة «مظاهر التطور الدلالي في كتب لحن العامة من القرن الثاني حتى نهايـــة القـــرن الرابع الهجري» لعبود احلام فاضل.

مقالة «التطور الدلالي في اللغتين العربية والفارسية» لعلي رضا محمد رضايي ونفيســـه أفصحي وهي مطالعة في الأسباب والمظاهر والأشكال.

مقالة «أثر استشراف التطور الدلالي في فهم النصّ القرآني: نماذج جزئية و موجهـــات كلية» لمهدي أسعد عرار.

مقالة «التطور الدلالي في لغة الفقهاء» لراكن زاهية.

فبعد اطلاعنا على بعض الدراسات السابقة في مجرى البحث رأينا أنها ترتبط ارتباطـــا بالدراسة البلاغية البحتة أو الدراسة الفقهية أو دراسة عوامل وأسباب التطـــور الدلاليـــة ولكنّنا في هذه الوجيزه قمنا بدراسة التطورات الدلاليه في ثلاث من المفردات القرآنية.

٣. معنى الدلالة والتطور

للوقوف على معنى االتطور الدلالي يجب أن نتناول معنى «الدلالة» و«التطور»:

جاء في *لسان العرب*: «دلّ فلان إذا هدي. دلّ إذا افتخر والدّلة: المنّة. والدليل ما يستدلّ به والدليل الدالّ وقد دلّه على الطريق يدلّه دَلالة ودِلالة والفتح أعلى» (ابن منظور، ٧٣٠: مادة «دلل»). نلاحظ أن المعنى الحقيقي للدلالة في قول ابن منظور وغيره من اللغويين ينحصر في الدلالة المادية ويشير الزمخشري إلى معنى هذا اللفظ قائلاً: «إنّ الأصل في الدلالة حسيٌّ يراد به الاهتداء إلي الطريق ... دللت الطريق: اهتديت إليه» (الزمخشري، ١٩٧٩: ١/ ٢٨٠). وأما الدلالة في الاصطلاح، فعرّفها الجرجاني في كتابه القيّم «التعريفات» هي: «كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشيء الأول هو الدّال والثاني هو المدلول» (الجرجاني، ١٩٨٦: ٢١٥).

٤. التطور لغةً واصطلاحاً

من البديهي أن التطور من مادة «ط ور». يقول صاحب *لسان العرب*: «الطور: التارة» (ابن منظور، ٧٣٠: مادة «طور»). قد جاءت هذه المادة في *القرآن الكريم*: «وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً» (نوح: ١٧). أطوارا أي ضروباً وأحوالاً مختلفة. وفي الاصطلاح، يقال: «هو انتقال الكلمة من طور إلى طور» (المبارک، ١٩٨١: ٢٠٧). فظاهرة التطور اللغوي تناول انتقال اللغة من حال إلى أخرى عبر عصور سواء كانت صوتياً أو دلالياً. قال رمضان عبد التواب: «اللغة ظاهرة اجتماعية لأنها تحيا في أحضان المجتمع وتستمدّ كيانها منه وهي تتطور بتطوره فترقّي برقيّه وتنحطّ بانحطاط» (← عبد التواب، ١٩٩٠: ٥). فظاهرة التطور لا تقصر على لغة دون أخرى بل هي ظاهرة عامة تشمل جميع اللغات في العالم وسبب ذلك يعود إلى كون اللغة ظاهرة اجتماعية؛ فهذا القانون يشمل جميع اللغات. من الملاحظ أن موضوع التطور أمرٌ تبني عليه العادات الإنسانية «فليس في قدرة الأفراد أن يوقِفوا تطور لغة ما يجعلوها تجمد على وضع خاص أو يسيروا بها في سبيل غير سبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي» (وافي، ٢٠٠١: ٧٨).

يشبه اللغويون واللسانيون، الكلمات والمفردات بالأحياء حيث جعلوا لها مولداً وحياةً وموتاً. «للكلمة بيئة تعيش فيها فقد تكون بدوية البيئة أو الحضرية وقد تعيش وتزدهر في بيئة معينة وتتصف بكثرة الاستعمال فتشتهر أو بندرته وقلّته فلا يعرفها إلا فريق من الناس وقد تنتقل ومن بلد إلى بلد» (المبارک، ١٩٨١: ٢٠٦).

فيعتري الألفاظ تغيّر وتبدلّ كما يعتري الكائنات فتتغير الألفاظ من ناحية شكلها ومبناها كالتغيير في حروفها وأصواتها وصيغتها وبنائها ومعناها «أي دلالتها» وهذا الأخير هو الذي موضوع بحثنا. يجمع الألسنيّون واللغويون المعاصرون على أن دلالة الكثير من الألفاظ تتغير بمرور الزمن وتوالي العصور. فقد تكتسب المفردة أبعاداً جديدة أو تحصر في إطار خاص أو تنتقل بشكل أن يضيف المعنى أو يخصّص كما يتسع أو يعمّم فيكون الانتقال من المعنى الضيق أو الخاص أو المعنى الاتساعي أو العام أو عكس ذلك. والتطور الدلالي ليس إلا جانباً من التطور اللغوي الواسع الذي يصيب عناصرها كافة؛ أصواتها ودلالاتها.

٥. تعريف التطور الدلالي

التطور الدلالي (Semantic development) أو التغير الدلالي (Semantic change) مصطلح من مصطلحات علم الدلالة الحديث؛ كما يعدّ محور اساسي من محاور الدراسة الدلالية الحديثة ويُقصد به «أن تكتسب اللفظ دلالة جديدة غير دلالتها الوضعية وقد أطلق بعضهم على هذه الظاهرة تغير المعنى» (الخولي، ١٩٨٢: ٢٣٥). يقول الخولي: «إن التطور الدلالي عبارة عن تركيب وصفي يدلّ على حدث موصوف خال من الدلالة علي الزمان ويطلق هذا المصطلح علي تغير معنى الكلمة على مرّ الزمن بفعل إعلاء أو انحطاط أو توسع أو مجاز أو نحو ذلك» (المصدر نفسه: ٢٥٠).

قد عني اللغويون المحدثون بظاهرة التطور الدلالي عناية بالغة منذ أوائل قرن التاسع عشر؛ كما عني بارتباط هذه الظاهرة بتطور المجتمع؛ إذ أن التطور الدلالي أحد جوانب التطور اللغوي. فاللغة ــ كما ذكرنا سابقاً ــ ظاهرة اجتماعية. فبحثوا أسباب تطور الدلالة وأشكاله وصوره والعوامل المؤدية إلي ذلك فأخذوا يبحثون في التغييرات الدلالية التي تطرأ

على «علم الدلالة التاريخي فيعني بدراسة تغيير المعنى عبر الزمن» (فرانك، ١٩٩٧: ٢٤). فمن الجوانب المهمة التي تتعلق بالتغير الدلالي هو الجانب التاريخي الـذي يحـدث الـتغير بواسطته بين المعنى الأصلي للمفردة والمعاني الجديدة فيدعي بـ «السيمانتيك التاريخي»؛ إذ أن الكلمة قد تطور و تتغير دلالتها من عصر إلى عصر. فكان من أهمّ ما شغل علماء اللغة موضوع تغير المعني أو التطور الدلالي وصور هذا التغير والتطور واسباب حدوثه والعوامل التي تعلب دوراً بارزاً في حياة الألفاظ أو موتها أي خروجها من الاستعمال.

٦. أشكال التطور الدلالي

حدّد اللغويون أشكال أو صور أو مظاهر التطور الدلالي؛ إذ أنّ هذه الأشكال والصـور تتنوع تبعاً لتعدد الأسباب. وهذه المظاهر هي:

١.٦ تخصيص الدلالة

ويسمّي ايضاً بـ «تضييق المعنى» (← أنيس، ١٩٨٤: ١٤٠؛ أحمد مختـارعمر، ١٩٨٢: ٢٤٣-٢٥٠؛ السعران، ١٩٦٢: ٣٠٥-٣١٣). ويراد به تحويل الدلالة من معنى كلي إلى معنى جزئي وتضييق مجالها (أولمان، ١٩٨٦: ١٨٠) والتخصيص بطريق الشرع «الحـج» وأصله القصد مطلقاً ثم خصَّ بقصد البيت الحرام. وأيضاً كلمة «الصحابة» وهـي تعـني الصحبة مطلقاً وقد خصّصت بأصحاب الرسول الأعظم (ص) وكلمة «الكفر» ومعناهـا الستر و الإنكار وخصّ بإنكار الدين وغير ذلك من أمثلة التخصيص الشرعي.

٢.٦ تعميم الدلالة

ويسمّي أيضاً توسيع المعنى وهو عكس ظاهرة التخصيص الدلالي. يقع توسيع المعنى أو امتداده (extension) عندما يحدث الانتقال من معني خاص إلى معنى عام. ويكون ذلك عند انتقال معني لفظة ما ذات دلالة خاصة إلى معنى أعم وأشمل مـن دلالتـها الأولى

(عمر، ١٩٨٢: ٢٤٣) ويتمّ ذلك بطريق الاستعمال الشائع للدلالة الجديدة للفظة؛ إذ أن «كثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم» (وافي، ١٩٤٥: ٣٢٠). فمثلاً إن لفظة «البأس» في أصلها اللغوي تعني الشدة في الحرب ثم عمّمت دلالتها في كلّ شدة نتيجة لكثرة استعمال هذه اللفظة في ذلك المعنى.

٣.٦ رقيّ الدلالة أو التغيّر المتسامي

يطلق عليه أيضاً إعلاء الدلالة أو تصعيد الدلالة (elevation) وذلك بأن يتحسن معنى الكلمة مع مرور الزمن ... ويقابله انحطاط الدلالة (الخولي، ١٩٨٢: ٨٣). من ذلك في العربية، انتقال كلمة «بيت» من الدلالة على المسكن المصنوع من الشعر إلى «البيت» الضخم الكبير المتعدد المساكن الذي نعهده في المدن.

٤.٦ إنحطاط الدلالة

«وهو تغيير يصيب دلالة الكلمة مع مرّ الزمن ويجعل معناها يتراجع حاملاً دلالة سلبية غير مرغوب فيها كما حدث لكلمة fool التي كانت تعني في الماضي «مهرج البلاط» وأصبحت تعني شخصاً غبيّاً» (المصدر نفسه: ٦٧). فمثلاً لقب «سيد» كانت تعني زعيم القبيلة أو سيد القوم ولكنها الآن لم يعدلها هذا المدلول بسبب إطلاقها على جميع المواطنين وأيضاً كلمة «الوزير» العربية فأصبحت في الإسبانية لا تعني أكثر من شرطي (← حمودة، ١٩٨٣: ١٨٨-١٩٨).

٥.٦ انتقال الدلالة أو نقل المعنى

وهو ما سمّاها إبراهيم أنيس بالمجاز ويراد به انتقال معنى اللفظة من مجال دلالي إلى مجال دلالي آخر وهو أيضاً تغير في مجال الاستعمال (أنيس، ١٩٨٤: ١٦٠) من دون أن يكون

في هذا التغير تخصيص أو تعميم. ويحصل الانتقال من معنى إلى آخر بطرق أبرزها الاستعارة أي المجاز الذي علاقة التشبيه والمجاز المرسل وهو الذي تكون علاقته غير التشبيه كالسببية والحالية والجزئية والكلية (فقه اللغة وخصائص العربية، ١٩٨١: ٢٢٠-٢٢١).

فمثلاً كلمة «بحث» تفيد في الأصل تحريك اليد في التراب للتفتيش عن شيء وكلمة «اقتبس» تدلّ على طلب القبس من النار ... هذه الألفاظ تدلّ على معانيها أقرب إلى المتعارف عليها دلالة مباشرة لا عن طريق المجاز بل إن دلالتها عليها أقرب إلى الذهن من دلالتها الأصلية لشيوع المعنى الجديد وانتشاره خاصة بعد طول العهد بهذا الاستعمال (المبارک، ١٩٨١: ٢٢٠-٢٢١). ذكرنا أن هذا الشكل من أشكال التطور الدلالي ــ أي نقل المعنى ــ يعتمد على وجود علاقة مجازية قد تكون علاقة مشابهة وقد تكون علاقه غير مشابهة. أما النوع الأول فهو انتقال مجال الدلالة لعلاقة المشابهة وذلك يكون في الاستعارة التي هي عبارة عن تشبيه حذف منه أحد طرفيه وأداة التشبيه (الجرجاني، ١٩٣٢: ٣٠). هذا الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي له عدة أشكال:

١. الانتقال من دلالة حسية إلى دلالة حسية أخرى؛ ٢. الانتقال من الدلالة الحسية إلى الدلالة المعنوية أو المجرّدة؛ ٣. الانتقال من الدلالة المجردة أو المعنوية إلي الدلالة الحسية أو المادية.

من خلال استقراء الألفاظ والمفردات، لاحظ أنّ معظم الدلالات تعود إلى أصول حسية في أصل وضعها ثم تتطور بمرور الزمن فتكتسب دلالات معنوية أو تجريدية أو ذهنية.

٧. دراسة تطبيقية في المفردات

١.٧ خشع

١.١.٧ الخشوع في الشعر الجاهلي

نجد مادة «خشع» في الشعر الجاهلي فهي استعملت كما يلي:

قالَ الأعشي

أهوي لها ضابِئٌ في الأرضِ مُفتحِصٌ للَّحمِ قدماَ خفيُّ الشَخصِ قد خَشَعا

(الأعشي الكبير، د.ت: ٤٥)

(ضبأ: لصق بالأرض؛ افتحص: البحث عن الشيء)

خشع هنا بمعنى سكن إلى الأرض.

ذكر ابن منظور في *لسان العرب* في ذيل مادة «خشع» هذا البيت للدلالة على الجبل لخاشع:

لما أتي خبرُ الـــزبيرِ تواضَـــعت سُورُ المدينةِ والجبـــالُ الخُشَّـــعُ

(ابن منظور، ٧٣٠: مادة «خشع»)

(تواضع: حطّ. سور: الحائط (ج: اسوار))

وقال النابغة الذبياني مستعملاَ هذه اللفظة:

رمادٌ ككُحل العين لأيـــاً أُبينُـــه ونؤيٌ كجِذم الحوض إثلمُ خاشعُ

(الكحل: ما وضع في العين. لأي: الشدة في العيش، الابطاء والتأنّ. أبـــان: أوضـــح. نؤي: حفيرة حول خباء لئلا يدخله ماء المطر. الجذم: أصل الشيء. ثلم: الخلل في الحائط)

الخاشع هنا اللاصق بالأرض. لاحظنا أنّ دلالات هذه المادة كلّها محسوسة ثم انتقلـــت دلالتها من المجال المادي والمحسوس إلى المجال المعنوي والمجرد.

نرى دلالة هذه المادة ــ أيضاً ــ على الرجل الذليل المتواضع حين أنشد قيس بن خفاف:

إذا افتقرت فلا تكـــن مُتِخشـــعاً تَرجو الفواضلَ عند غيرِ المفضَّـــلِ

(الفواضل: ج الفاضل: ذوالفضل. ذو الفضيلة. المفضّل: الكثير الفضل). متخشع هنا: الرجل الذليل الضعيف

وأيضاً:

فـــــإذا رأوه خاشـــــعاً خَشَعوا لِذي تاج حلاحـــلُ

(حلاحل: السيد في عشيرته. الشجاع التامّ)

خاشع هنا بمعنى الرجل الذي يحمل صفة الخشوع وهذا معنى مجرد ومعنويّ.

۲.۱.۷ الخشوع في *القرآن الكريم*

فاذا دقّقنا في الآيات القرآنية نجد أنّ هذه المادة استعملت فيه إستعمالاً محسوساً. قال تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ» (الغاشية: ۲) مادة خشع هنا خفض الرأس مع الذلّ وهي وصف الكفار. «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسا» (طه: ۱۰۸) خشعت تعني هنا سكنت الأصوات «وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً» (فصلت: ۳۹) لفظة خاشعة تعني يابسة كما ذكر *لسان العرب*.

رأينا أن مادة «خشع» في *القرآن الكريم* لها معنى مجرد ومادي معاً غير أن الخشوع أخذ دلالة غير محسوسة فيها إضافة إلى دلالات سابقة وهي الخشوع لله الذي صارت صفة خاصّة للمؤمنين والمتقين. كقوله تعالى:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاَةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ» (البقرة: ٤٥).

«الَّذِينَهُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ» (المؤمنون: ۲).

يبدو أن هذه المادة قد ضاقت دلالتها في *القرآن الكريم* وأخذت دلالة قرآنية.

۳.۱.۷ الخشوع عند أصحاب المعاجم القرآنية

يقول الراغب الإصفهاني: «الخشوع: الضرّاعة وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ... إذا ضرع القلب خشعت الجوارح» (اصفهاني، ۲۰۰۹: مادة «خشع») ويقول المرحوم المصطفوي: «إن الأصل الواحد في هذه المادة هو حالة تحصل من اللينة والوضيعة والقبول والأخذ. وهذه الحالة تحققها في المرتبة الأولى في القلب ثم تتجلّى ثانياً في البصر والسمع؛ فإنهما وسيلتا القبول والتلقي. وهذا معنى خشوع البصر وخشوع الصوت أي جعل البصر والسمع في مقام الانقياد والتسليم والخفض والقبول ...» (مصطفوي، ۱۳۷۱ مادة «خشع»).

٤.۱.۷ الخشوع عند المفسرين

يقول العلامة الطباطبائي: «الخشوع تذلّل باطنيّ بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهريّ بالجوارح» (الطباطبايي، ۱۳۹۷: ۱/ ۱۵۲). وجاء في تفسير مجمع البيان إنّ أصل

الخشوع، السهولة من قولهم. الخاشع من الأرض الذي لا يهتدي له لأن الرمل يعفي آثاره والخاشع، الخاضع ببصره والخشوع هو التذلل (طبرسي، ١٣٧٩: ٢/ ٩١٦) ويقال الخشوع تأثر خاصّ في القلب من مشاهدة العظمة والكبرياء (الطباطبايي، ١٣٩٧: ٢٠/ ٢٤؛ طبرسي، ١٣٧٩: ٩/ ٣٥٧).

نظرة بسيطة إلى أقوال المفسرين تكشف عن هذا الأصل أن الخشوع هو الخوف وسكون الجوارح، غضّ البصر وخفض الجناح وتنكيس الرأس وإعظام المقام. يمكن القول إن الخشوع من صفات القلب ثم ينسب إلى الجوارح كقوله تعالى «خشعت الأصوات».

٥.١.٧ الخشوع عند أصحاب المعاجم اللغوية

يقول صاحب معجم العين: «رجل متخشع متضرع والخشوع والتخشع والتضرع واحد. أخشعت أي طأطأت الرأس كالمتواضع» (فراهيدي، ١٩٨١: مادة «خشع»). كما يقول صاحب معجم *لسان العرب*: «خشع يخشع خشوعاً: رمي ببصره نحو الأرض وغضّه وخفض صوته. اختشع إذا طأطأ رأسه وتواضع. خشعت الأصوات للرحمن أي سكنت. كل ساكن خاضع خاشع. التخشع لله: الإخبات والتذلل. الخُشعة: قفّ غلبت عليه السهولة. في الحديث كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت الأرض من تحتها. قال ابن الأثير: الخشعة: أكمة لاطئة بالأرض. العرب تقول للجثمة اللاطئة هي الخشعة وجمعها: خُشَع. الخاشع من الأرض: الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحو آثاره. قوله تعالي: و من آياته أنك ترى الأرض خاشعة. بلدة خاشعة أي مغبرة لا مترل بها إذا يبست الأرض و لم تمطر قيل قد خشعت. خشع سنام البعير إذا انضى فذهب شحمه وتطأطأ شرفه. خشعت الكواكب إذا دنت من المغيب. قال ابن خالويه: الخشعة ولد البقير» (إبن منظور، ٧٣٠: مادة «خشع»).

ويقول صاحب معجم *مقاييس اللغة*: «الخاء والشين والراء يدلّ على التطامن. الخشوع قريب المعنى من الخضوع؛ إلا أن الخضوع في البدن والخشوع في الصوت والبصر. قال ابن دريد: الخاشع المستكين الراكع. يقال خشع خراشي صدره إذا القي بزاقاً لزجاً. الخُشعة: قطعة من الأرض» (ابن فارس، ١٣٦٦: مادة «خشع») ويري صاحب *أساس البلاغة*: «خشع له و تخشع: ذلّ وتطامن. ومن المجاز: أرض خاشعة: متطامنة.

وخشعت الجبال. قفّ خاشع: لاطئ بالأرض. أرض خاشعة: غير ممطورة. خشع الورق: ذبل» (الزمخشري، ١٩٧٩: مادة «خشع»).

الدلالات التي تذكر في المعاجم والقواميس لمادة «خشع» كما يلي:

١. السكون، ٢. خفض الصوت، ٣. طأطأة الرأس، ٤. الإخبات والتذلل، ٥. التطامن، ٦. قفّ غلبت عليه السهولة، قطعة من الأرض، ٧. الخشعة: أكمة لاطئة بالأرض؛ سمّيت بذلك، لأنها كشيء ثابت ساكن على الأرض، ٨. بلدة خاشعة أي مغبرة لا مترل بها إذا يبست الأرض و لم تمطر، ٩. سنام البعير سمّي بذلك، لأنه مكان ثابت ساكن على البعير، ١٠. خشوع الكواكب: دنوّها من المغيب، ١١. ولد البقير، ١٢. شوع الورق: ذبولها.

يبدو من هذه الدلالات كلها أن مادة «خشع» لها معنى محسوس ومعنى غير محسوس. المعنى الحقيقي لهذه المادة هو السكون والمعنى المجازي لها هو التواضع والتطامن والإخبات والتذلّل.كأن هناك نوعاً من السكون والثبوت لمن الذي أخبت وتطامن. نرى أن هذه المادة تطلق على المكان أو الأرض أو البلدة إذا كانت غير ممطورة ويابسة كما تطلق على سنام البعير وخفض الصوت ودنوّ الكواكب إلى الغروب وذبول الورق وهي ــ كلّها ــ دلالات مادية ومحسوسة. غير أن الإخبات والتذلل والسكون والتطامن والتواضع هي دلالات مجردة غير محسوسة.

إذا دقّقنا في الفاظ اللغة نجد أن كثيراً من الفاظها قد ترادفت بسبب التطور لا سيّما الألفاظ المتقاربة في المعنى. إذا كثيراً ما، يحدث أن يتخصص العام أو ان يعمّم الخاص أو أن يتغيّر مجال الدلالة فيختفي ذلك التباين تدريجياً ثم تصبح دالة على معنى واحد بمرور الزمن. هكذا يحدث الترادف في الألفاظ بسبب تطور الدلالة فيها ضيقاً واتساعاً وتغيّر مجالها. لأنّ المعاني لا تبقي على حال واحدة. فكلمة الخشوع ترادف الخضوع إلا أنّ الخضوع في البدن والخشوع في الصوت (العسكري، ٢٠٠٦: ٢٧٨).

٦.١.٧ الاستنتاج

١. الدلالة الوضعية لهذه المادة هي السكون والثبوت؛

٢. المعنى المجازي هو التواضع والإخبات والتذلل والتطامن؛

٣. لم تستعمل هذه المادة في الشعر الجاهلي إلا في دلالتها الوضعية؛

٤. في *القرآن الكريم*، لم يخرج اللفظ عن المعنى الذي استعمله العرب في العصر الجاهلي؛ إلا أنه أخذ بُعداً غير مادي فابتعد من المحسوسات وهي الخشوع لله باعتباره أنه صفة للمؤمنين؛

٥. والآن إذا سمعنا لفظة الخشوع يتبادر إلى الذهن المعنى الذي أنه غير محسوس؛

٦. فيمكن القول إنّ اللفظة، انتقلت دلالتها من العام إلى الخاص فضاقت دلالتها في *القرآن الكريم*.

٢.٧ رسل

١.٢.٧ الرسول في الشعر الجاهلي

وردت مادة «رسل» في الشعر الجاهلي؛ سنذكر بعضها فيما يلي.

يقولُ زهيرُ بن أبي سلمي

بلِّغ قبائلَ شتّي في محلّهمُ وقد يجيءُ رسولُ القوم بالخَبَرِ

كما يقول طرفة بن العبد

ألا ابلغا عبدَ الضّلال رسالةً وقد يُبلغ الأنباءَ عنك رسولُ

و أيضاً قال الأعشي

فعِشنا زماناً وما بيننا رسولٌ يحدّثُ أخبارَها

(عاش: صار ذا حياة. حدث: تكلم وأخبر)

يقول امرؤ القيس

وبات عليه سرجه ولجامه وبات بعيني قائماً غيرَ مُرسَلِ

(امرؤ القيس، د.ت: ٨٩)

(السرج: الرحل؛ غلب استعماله للخيل. اللجام: ما يجعل في فم الفرس من حديد)

إذا دقّقنا في الأبيات الجاهلية، يظهر لنا أن مادة «رسل» تستعمل ــ غالباً ــ بمعنى حمل الخبر والرسول هو الذي يحمل خبراً.

٢.٢.٧ الرسول في *القرآن الكريم*

هذه هي عدد من الآيات القرآنية التي تشتمل على كلمة «الرسول»:

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» (البقرة: ٢١٤).

و «مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (آل عمران: ١٤٤).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِك خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً» (النساء: ٥٩).

الرسول في هذه الآيات بمعنى: «حامل الرسالة الالهية»

«وقَالَ الْمَلِك ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّك فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» (يوسف: ٥٩) الرسول في هذه الآية: حامل الرسالة بين الناس لبضهم بعضاً.

«اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» (الحج: ٧٥).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَأواتِ وَ الْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكةِ رُسُلاً أولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَ ثُلاَثَ وَ رُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (فاطر: ١) المراد من الرسل في هذه الآيات «الملائكة».

٣.٢.٧ الرسول عند أصحاب المعاجم القرآنية

جاء في المفردات: أصل الرِّسل، الانبعاث على التؤدة ويقال ناقة رسلة: سهلة اليسر. ومنه

الرسول: المنبعث. وتُصوُر منه تارة الرفق فقيل على رسلك إذا إمرته بالرفق وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول. الرسول تارة للقول المتحمل كقول الشاعر: ألا أبلغ أبا حفص رسولاً. وتارة لمتحمل القول والرسالة. جمع الرسول: رسل. رسل الله تارة يراد بها الملائكة وتارة يراد بها الأنبياء. فمن الملائكة قوله تعالى: «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْکَ» (هود: ٨١). «وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً» (هود: ٦٩) ومن الأنبياء كقوله تعالى: «وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ» (آل عمران: ١٤٤). «وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ» (الانعام: ٤٨) (المفردات، ٢٠٠٩: مادة «رسل»).

ذكر الراغب أصل هذه المادة تدلّ على الانبعاث والرفق والسير السهل كما يرى أنّ الرسل في *القرآن* تدلّ على الملائكة حيناً والأنبياء حيناً آخر.

وجاء في كتاب التحقيق في كلمات *القرآن*: «إن الأصل الواحد في هذه المادة هو الإنفاذ مع الحمل بمعنى أن تنفذ شيئاً مع قيد أن تجعله حاملاً لأمر ويلازم هذا المفهوم، التحرك والسير ولو معنوياً. الإرسال: التوجيه؛ يلاحظ فيهما البعث والانهاض. المرسل أعمّ ان يكون روحانياً أو مادياً من انسان أو شيطان أو حيوان أو جماد لا يشعر. فالروحاني: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً» (مريم: ١٧)». والجسماني من الإنسان: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى» (التوبة: ٣٣) و «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ» (هود: ٢٥).

من الحيوان: «وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ» (الفيل: ٣). موجودة غير شاعرة: «وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ» (الفرقان: ٤٨) و «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً» (هود: ٥٢). من الشياطين: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً» (مريم: ٨٣) من الملائكة: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً» (الحج: ٧٥) (المصطفوي، ١٣٧١: مادة «رسل»).

فالمرحوم المصطفوي يرى أن «الإرسال» يطلق على الإنسان والحيوان والشيطان والملائكة وموجودات غير شاعرة في *القرآن الكريم*. ولا نرى هذه الدلالات كلّها في الشعر الجاهلي.

٤.٢.٧ الرسول عند المفسرين

يقول الطبرسي: «أصل الرسول من الإرسال وهو الإطلاق. يقال: أرسل الطير إذا أطلقه

... والفرق بين الرسول والإنباء أن الإنباء عن الشيء قد يكون من غير تحميل النبأ والإرسال لا يكون إلا بتحميل الرسالة» (الطبرسي، ١٣٧٩: ٣/ ٣٨٣) ويقول العلامة الطباطبائي: «الرسول هو الذي يحمل رسالة وقد أطلق في *القرآن* على الرسول البشري الذي يحمل رسالة الله تعالى إلى الناس وأطلق بهذه اللفظة على جبريل ملك الوحي. قال تعالى: «انه لقول رسول كريم» وقال أيضاً في الملائكة: جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة» (الطباطبايي، ١٣٩٧: ١٤/ ١٩٥).

٥.٢.٧ الرسول عند أصحاب المعاجم اللغوية

يقول الخليل: «الرسل: الذي فيه استرسال ولين. الرسل: القطيع من كلّ شيء وجمعه أرسال والاسترسال إلى شيء كالاستئناس والطمأنينة. الرسول بمعنى الرسالة. الرسُل جمع الرسول. الرسائل جمع الرسالة» (الفراهيدي، ١٩٨١: مادة «رسل») ويقول ابن منظور: «الرَسل: القطيعة من كل شيء والجمع أرسال. الرسل: الإبل. الجوهري: الرَسل: القطيع من الإبل والغنم. استرسل: إذا قال أرسل إلى الابل أرسالاً. جاؤوا رسالة رسالة: جماعة جماعة. إذا أورد الرجل إبله: متقطعة؛ قيل أوردها أرسالاً. كثير الرسل: شديد التفرق في طلب المرعى. الرسل والرسالة: الرقّ والتؤدة. الترسل في القراءة: هو التحقيق بلا عجلة. ترسل في قراءته: اتّأد فيه. يقال: ترسل الرجل في كلامه إذا لم يعجل.

الرسل: اللبن، كثر الرسل أي كثر اللبن. إنما يكثر في حال الرخاء والخصب. الرَسل بفتح الراء: الذي فيه لين واسترخاء. يقال ناقة رسلة القوائم أي سلسة، لينة المفاصل. سير رسل: سهل. استرسل الشيء: سَلِسَ. ناقة سهلة: سهلة السير. شعر رسل: مسترسل. جاءت الابل رَسَلاً: متتابعة. سمي الرسول رسولاً لأنه ذو رسول أي ذو رسالة. الرسيل: السهل. حديث مرسل إذا كان غير متصل الإسناد. جمعه: مراسيل. إرسال الشيء: أطلقه، أهمله. المرسلة: قلادة تقع على الصدر. الرِسل: اللبن. الرسلان من الفرس: أطراف العضدين. الراسلان: الكتفان» (ابن منظور، ٧٣٠: مادة «رسل»).

يقول ابن فارس:

الراء و السين و اللام أصل واحد مطّرد منقاس؛ يدلّ على الانبعاث والامتداد. فالرسل: السير السهل. ناقة رسلة: لينة المفاصل. الرسل: اللبن لأنه يترسّل من الضرع. الرسيل: القطيع. أرسل القوم إذا كان لهم رسل وهو اللبن. جاء القوم إرسالاً: يتبع بعضهم بعضاً. الإمرأة المراسل التي مات بعلها فالخطّاب يراسلونها (ابن فارس، ١٣٦٦: مادة «رسل»).

ويقول الزمخشري:

راسله في كذا: بينهما مكاتبات ومراسلات. أرسل الفحل في الإبل: أرسل يده عن يده بعد المصافحة. وجهت إليه رسلي إرسالاً: متتابعة. رسلاً بعد رسل: جماعة بعد جماعة. ناقة رسلة. رجل رسل: فيه لين و استرسال. من المجاز: أرسل الله عليهم العذاب. أرسل الله عن يده: خذله (الزمخشري، ١٩٧٩: مادة «رسل»).

يمكن تلخيص الدلالات التي توجد في هذه المادة في ثلاثة حقول دلالية:

الف) التقطيع

١. الرسل: القطيع من كلّ شيء؛

٢. الرسل: الإبل؛ لأنهم متقطعة بعضهم يتلو بعضاً؛

٣. رسالةً رسالةً (أرسالاً): جماعة جماعة، متقطعة؛

٤. إرسال الشيء: إطلاقه كأن الشيء يتقطع؛

٥. الرسل: اللبن؛

٦. حديث مرسل: أسناده متقطعة غير متصلة؛

٧. الترسل في القراءة: نوع من التقطيع في هذه القراءة؛

٨. الرسول: هو الذي يتابع الأخبار مترلاً مترلاً.

ب) اللين

٩. الرسل: اللين، الرقّ والتؤدة؛

١٠. الاسترسال: الاستئناس، الطمأنينة؛

١١. الترسل في الأمور: التمهل والتوقر؛

١٢. الرسيل: السهل (سير رسل)؛

١٣. رسول: في الرسول؛ نوعٌ من اللين والطمأنينة.

ج) سرعة الحركة

١٤. المراسلة: المكاتبة سمّي بذلك لأن الذي يرسل الرسالة إلى صاحبه بسرعة؛

١٥. ناقة رسلة القوائم: كأنها تسير بسرعة؛

١٦. المرسلات: تطلق على الريح والملائكة لما فيهما من سرعة الحركة.

من الدلالات المادية والمحسوسة للمادة هي: القطيع من كل شيء، الإبل؛ لأنهم متقطعة بعضهم يتلو بعضاً واللبن. الدلالات المجردة كـ: اللين، الرق و التؤدة. الاستئناس، الطمأنينة، السهل. اللين والتقطيع والسرعة في الحركة هي دلالات حقيقية وبقية الدلالات هي دلالات مجازية. و إذا دقّقنا نستطيع أن نجد العلاقة بين الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية.

سبق القول إن كثيراً من الألفاظ الموجودة في اللغة قد ترادفت بسبب التطور وذلك عن طرق خاصة كتخصيص العام أو تعميم الخاص أو غيرهما من طرق أخرى. من أمثلة وقوع الترادف بسبب التعميم في الدلالة. فقد فرّق الله سبحانه وتعالى بين الرسول والنبي وعطف النبي على الرسول في سورة الحج ومن المعلوم أن عطف الشئ على الشئ يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. ويعتقد أصحاب اللغة إن النبي لا يكون إلا صاحب معجزة وقد يكون الرسول رسولا لغير الله تعالى فلا يكون صاحب معجزة كما يعتقد أنّ الإنباء عن الشئ قد يكون من غير تحميل النبأ والإرسال لا يكون بتحميل. فالنبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي والرسالة تضاف إلى الله (الفروق اللغوية، ٢٠٠٦: ٣٠٠).

٦.٢.٧ الاستنتاج

١. إنّ هذه المادة وضعت وضعاً أولياً للدلالة على ثلاثة: اللين والتقطيع وسرعة الحركة على حسب اقوال أصحاب المعاجم اللغوية؛

٢. تغلب دلالاتها غير محسوسة علي دلالاتها المحسوسة من حيث الاستعمال؛

٣. تستعمل كلمة الرسول في الشعر الجاهلي للدلالة على حمل الخبر غالباً؛

٤. تستعمل كلمة الرسول في *القرآن الكريم* للدلالة على حمل الرسالة الإلهية في كثير من

الآيات كما تدلّ على الملائكة وكذلك نري آيات تستعمل كلمة الرسول لتدلّ علـــى حمل الرسالة بين الناس لبضهم بعضاً كما جاءت في سورة يوسف المباركة؛

٥. يمكن القول إنّ هذه المادة تطورت في *القرآن* نحو رقيّ الدلالة بالنسبة إلى الشعر الجاهلي. فارتقت دلالته في *القرآن الكريم* بعد أن كانت ذا دلالة عادية في العصر الجاهلي.

٣.٧ سبح

١.٣.٧ التسبيح في الشعر الجاهلي

قد وردت مادة «سبح» ومشتقاتها في الشعر الجاهلي. سنذكر بعضها.

هذه المادة في اللغة هو العوم في الماء قال الشاعر في هذا المعنى:

سفينتُه المواشَكة الجنـــوبِ وماءٌ يغرقُ السَبحاءُ فيـــه

(ابن منظور، ٧٣٠: مادة «سبح»)

(واشك: أسرع في السير)

توجد أبيات في الأشعار الجاهلية تستعمل فيها «سبحان» لإفادة معنى التعجب كقول الأعشي:

أقولُ لمـــا جـــاء ني فخـــرُه سبحانَ مِن علقمـــةِ الفـــاجرِ

نرى أيضاً من هذه المادة «سابحات» والمراد منها الخيول؛ كما جاء في شعر امرئ القيس:

و مسحٍّ إذا ما السابحاتُ علي الونَي أثرن الغبـــارَ بالكَديـــدِ المُرَكـــلّ

(امرؤ القيس، د.ت: ١٢٣)

(سح: صب. السابح من الخيل: الذي يمد يديه في عدوه. الوني: الفتـــور. الكديـــد: الأرض الصلبة. ركل: الضرب بالرجل).

٢.٣.٧ التسبيح في *القرآن الكريم*

وقد جاءت مادة «سبح» في *القرآن الكريم*: «لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (يس: ٤٠) مادة «سبح» تدلّ على ســـبح الشمس والقمر وجريانهما في مدار بنظم دقيق.

«قالوا سُبْحَانَکَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَکِيمُ» (البقرة: ۳۲). الحق ذاته وصفاته وافعاله مترهٌ من أي ضعف ونقص. «اذْکُرْ رَبَّکَ کَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْکَارِ» (آل عمران: ٤١) سبّح: اذكر.

«قلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ کُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً» (اسراء: ۹۳) سبحان في هذه الآية تفيد التعجب.

۳.۳.۷ التسبيح عند أصحاب المعاجم القرآنية

يقول الراغب الإصفهاني:

> إنّ السبح المرّ السريع في الماء وفي الهواء يُقال سَبَحَ سَبحاً وسباحةً واستعير لمرّ النجوم في الفلك نحو: «کلٌّ فِي فَلَکٍ يَسْبَحُونَ» (الانبياء: ۳۳) ولجري الفرس نحو: «وَ السَّابِحَاتِ سَبْحاً» (النازعات: ۳) ولسرعة الذهاب في العمل نحو: «إِنَّ لَکَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً» (المزّمّل: ۷) والتسبيح تنزيه الله تعالى وأصله المرّ السريع في عبادة الله تعالى ... (اصفهاني، ۲۰۰۹: مادة «سبح»).

ويقول المرحوم المصطفوي إنّ الأصل الواحد في هذه المادة هو الحركة في مسير الحق من دون انحراف ونقطة ضعف أو كون على الحق منزهاً عن نقطة ضعف (مصطفوي، ۱۳۷۱: مادة «سبح») ويمضي قائلاً يلاحظ في هذه المادة جهتان: الحركة في مسير الحق والتباعد عن الضعف وبهذا يظهر الفرق بينهما وبين التنزيه والتقديس والتبرئة والتعبيد والتزكية و ... فإن النظر فيها إلى جهة التباعد فقط (المصدر نفسه).

٤.۳.۷ التسبيح عند المفسرين

السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمّات المعاش وأنواع التقلب في قضاء حوائج الحياة (الطباطبائي، ۱۳۹۷: ۲۰/ ٦٤). كقوله تعالى: «إِنَّ لَکَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً». جاء في تفسير مجمع البيان أن «التسبيح» في اللغة علي أقسام: الأول) التنزيه كقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» (الاسراء: ۱)؛ الثالث) بمعنى الصلاة كقوله: «فَلَوْ لاَ أَنَّهُ کَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»

(الصافات: ١٤٣)؛ الرابع) بمعنى النور كما جاء في الحديث فلولا سبحات وجهه أي نوره (الطبرسي، ١٣٧٩: ٦/ ٥٣٨).

إذا دقّقنا في الآيات التي تستعمل فيها مادة «سبح» وجدنا أن المعنى الوضعي والحقيقي لمادة «سبح» أُستخدم في *القرآن الكريم* في موضعين: «و هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (الانبياء: ٣٣). «لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (يس: ٤٠) السبح هنا العوم لكن لا في الماء بل في السماء كما قال الراغب السبح هو المرّ السريع في الماء فاستعير لمرّ النجوم في السماء.

٥.٣.٧ التسبيح عند أصحاب المعاجم اللغوية

يقول خليل بن أحمد الفراهيدي: إنّ السبح يكون فراغاً بالليل. وايضاً فراغاً للنوم كقوله تعالى: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً» سبحان الله: تنزيه الله عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف به. سبّحتُ تسبيحاً لله أي نزّهته تنزيهاً. السبوح: القدوس هو الله. السّبحة: خرزات يُسبَّحُ بعددها. التسبيح يكون في معنى الصلاة: فسبحان الله حين تمسون وحين تسبحون. الآية تأمر بالصلاة في أوقاتها. السّبح مصدر كالسّباحة: سبح السابح في الماء. النجوم تسبح في الفلك: تجري في دورانه. السبحة من الصلاة: التطوع (الفراهيدي، ١٩٨١: مادة «سبح»).

وجاء في لسان العرب: «السّبح والسّباحة: العوم. سبّح في النّهر وفيه يَسْبَحُ. أسبح الرجل في الماء: عَوَّمه سَبْحُ الفَرَس: جَرْيُه. السوابح: الخيل لأنها تسبح. السّبح: الفراغ، الجيئة والذهاب. سبحتُ في الأرض: تباعدت فيها. سَبَح اليربوع في الأرض إذا حفر فيها. سبح في الكلام إذا أكثر فيه. التسبيح: التنزيه. سبحان الله: معناه تنزيهاً لله من الصاحبة والولد وتنزيه الله عن كلّ ما لا ينبغي له أن يوصف. السُبحة: الدعاء وصلاةُ التطوع و النافلةُ. السبح: النوم. السبح: السكون. السَّبح: التقلب والانتشار في الأرض والتصرف في المعاش فكأنه ضدّ. المُسَبّحة: الإصبع التي تلي الإبهام. سمّيت بذلك لأنها يشار بها عند التسبيح. السَّبحة: ثوب من جلود. كساء مسبَّح قوي شديد. السَبوحة: البلد الحرام. يقال وادٍ بعرفات» (ابن منظور، ٧٣٠: مادة «سبح»).

يرى ابن فارس: «السين والباء والحاء أصلان. أحدهما: جنس من العبادة والآخر جنس من السعي فالأول السُبحة وهي الصلاة ويختص بذلك ما كان نفلاً غير الفرض. التسبيح هو تنزيه الله من كل سوء. التنزيه: التبعيد. العرب تقول سبحان مِن كذا: ما أبعَده. السّبح: العوم في الماء. السابح من الخيل: الحسنُ مدّ اليدين في الجري» (ابن فارس، ١٣٦٦: مادة «سبح») ويقول الزمخشري: «قضى سبحته: صلاته. سبّح: صلّى. من المجاز: فرس سابح وسبوح. النجوم تسبح في الفلك. فلان يسبح في النهار كلّه في طلب المعاش. سبحان من فلان: تعجّب منه» (الزمخشري، ١٩٧٩: مادة «سبح»).

تشير المعاجم اللغوية إلى دلالات مادة «سبح» على النحو التالي:

١. الفراغ، ٢. السبحة: خرزات التسبيح، ٣. سبحان الله: تنزيهه عن كلّ ما لا ينبغي له، سبّوح من صفات الله، ٤. التسبيح يكون بمعنى الصلاة، ٥. العوم في الماء: تدلّ على السعي والحركة في أصل المادة (سمّي بذلك لتقلبه في الماء)، ٦. الجري والحركة، الانتقال في الأرض والتصرف في المعاش، الجيئة والذهاب، ٧. سبح في الكلام: إذا أكثر فيه، ٨. سبحان الله: يفيد التعجب في كلام العرب، ٩. سبحات: مواضع السجود، ١٠. السُّبحة: صلاة التطوع و النافلة، ١١. السبح: نوم، ١٢. السبح: السكون، ١٣. السبح: ثوب من الجلود، كساء قوي، ١٤. السابحة: الخيل؛ سمّيت بذلك لجريه السريع، ١٥. السبحة: الإصبع التي تلي الإبهام؛ سميت بذلك لأنها يشار بها عند التسبيح، ١٦. السبوحة: البلد الحرام.

إذا دقّقنا في هذه الدلالات وجدنا فيها دلالات مادية ومحسوسة ودلالات غير محسوسة. تطلق السبحة على خرزات التسبيح. المراد بالسبحات، مواضع السجود. السبح: النوم. ثوب من الجلود، الخيل، الإصبع التي تلي الإبهام، العوم في الماء هذه هي دلالات محسوسة. هنا يجب أن نشير إلى قول ابن فارس الذي أكّد على هذا الأمر بأن لهذه المادة أصلين تدلّ على العبادة والسعي. فلذا جميع المدلولات ترجع إليهما وكذلك ثمّة ملاحظة مهمة وهي أن هذه الماده يمكن أن تُعدّ من الأضداد إذ نرى في دلالاتها: «الحركة والإنتقال» و«السكون».

وأما الزمخشري، فهو يرى أنّ أصل مادة «سبح» تعني العبادة وهو الصلاة؛ إذ قال الله تعالى: سبّح بمعني صلّى. ومضى قائلاً إن من المجاز، فرس سابح والنجوم تسبح في الفلك أو سبحان مِن ...: يفيد التعجب. في الحقيقة يعتقد أن السعي و الجري والحركة تعتبر دلالة مجازية لهذه المادة وأصل التسبيح هو الصلاة. نستنتج من هذه العبارات أن دلالات مادة «سبح» تساوي بين الأصلين (العبادة) و(الحركة و الانتقال)؛ إذ نرى بعضها تعود إلى هذا وبعضها تعود إلى ذاك (المصدر نفسه).

إذا دقّقنا في الفاظ اللغة نجد أن كثيراً من الفاظها قد ترادفت بسبب التطور لا سيّما الألفاظ المتقاربة في المعنى. فظاهرة الترادف مسألة دلالية وهي غالباً ما تكون نتيجة التطور في دلالة الألفاظ ولذا يمكن أن نردّ كثيراً من المترادفات إلى التطور الدلالي في الألفاظ. إذ كثيراً ما، يحدث أن يتخصص العام أو أن يعمّم الخاص أو أن يتغيّر مجال الدلالة. فعلماء اللغة والمفسرين يفرّقون بين التسبيح والتقديس أنّ كلمة التسبيح تستعمل في تنزيه ذات الله سبحانه وتعالى. فالتقديس أعمّ من التسبيح. فلذا يقال الإنسان المقدس أو الأرض المقدسة ولا يقال رجل مسبح أو أرض مسبحة (جوادي آملي، ١٣٨٦: ١/ ١٥٢).

٦.٣.٧ الاستنتاج

١. الأصل في هذه المادة وضعاً هو الحركة والانتقال والتقلب ويقال لهذه المادة أصلان: الحركة والعبادة؛

٢. على حسب بعض الأقوال كقول الزمخشري يمكن القول إن المعنى الحقيقي لهذه المادة هو العبادة والصلاة والمعنى المجازي لها هو الجري والحركة وإبداء التعجب. وإذا دقّقنا بين المعني الحقيقي والمجازي نجد العلاقة بينهما وهي: كأنّ المخلوقات كلها تسعي وتعدو إلى الله سبحانه وتعالى؛

٣. لهذه المادة دلالات محسوسة وغير محسوسة وتستعملان على السّواء في الشعر الجاهلي؛

٤. أما في *القرآن الكريم* فقد وردت هذه المادة لتدلّ على ذكر الله إلا في موضع واحد قد تدلّ على معناه اللغوي وهو العوم لكن عوم النجوم في السماء؛

٥. بقيت دلالة وضعية لهذه المادة في *القرآن الكريم*؛ إلا أنها ضاقت دلالتها لتدلّ على تسبيح الله وهذا ما نراه في الشعر الجاهلي.

٨. النتائج

وفي الختام، سأعرض للقارئ الكريم أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث وتلك كما يلي:

١. قد أظهر البحث أنّ اللفظة القرآنية أصبحت كائنةً جديدةً حيةً تجاوزت حدود المعنى الوضعي وألبسها السياق القرآني ثوباً جديداً؛

٢. ما أغنى وأثرى اللغة العربية من جهة إعطاء المعاني والدلالات الجديدة هو مجيء الإسلام ونزول *القرآن الكريم*؛

٣. قد سبّب هذا التطور الدلالي نشوء العلاقات الدلالية الجديدة كالترادف والاشتراك اللفظي والتّضاد؛

٤. كشف البحث عن هذه الحقيقة أن المفردات القرآنية هي مفردات كانت مستخدمة في العصر الجاهلي؛ فحملّها الإسلام أعطاها معاني ودلالات جديدة؛

٥. يبدو أن كثيراً من المفردات قد نقلت من دلالتها المادية والمحسوسة إلى دلالة معنوية غير محسوسة؛

٦. التطور اللغوي بطيء جداً بطبيعته ويحتاج إلى مرور سنوات طويلة لبروزه ولكن معجزة *القرآن* اللغوية قد أدّت إلى حدوث تطورات لغوية دلالية واسعة في حقبة زمنية قليلة؛ إذ أن كثيراً من مفردات *القرآن الكريم* كانت مستخدمة في الشواهد الشعرية والنثرية في العصر الجاهلي إلا أن *القرآن الكريم* خصّص ألفاظاً بمعان لم يخصّصها الجاهليون. هناك ألفاظ كانت عامّة الدلالة فخصّصت دلالتها في *القرآن* كما أنّ هناك ألفاظاً ومفردات كانت خاصّة الدلالة في العصر الجاهلي فأعطاها القرآن الكريم دلالة عامة. فكما أن نحو *القرآن* ونثره لا يشابه لغة الشاعر الجاهلي بصورة كاملة فكذلك مفردات *القرآن* ودلالاتها أيضاً كذلك. فالقرآن استخدم تلك الألفاظ ولكن أعطاها دلالة جديدة؛

٧. على خلاف ما نتصور، عندما نتابع الأبيات التي وصلت إلينا من العصر الجاهلي، نواجه أبياتاً فيها تعابير لا نستطيع أن نجد موافقة بين هذه المفردات المستعملة وبيئة العصر الجاهلي فيجب أن نقف بحذر وتأمل. بعبارة أخرى هناك أبيات ربما منحولة لا نجد لها اساساً وهذا بسبب أن المسلمين أرادوا أن يحكموا الثقافة القرآنية فقاموا بصياغة أبيات فيها مفردات ومضامين دينية ــ قرآنية ونسبوها إلى الشعراء الجاهليين. هذه رؤية ربما يخالفها ولا يقبلها بعض المثقفين فلذلك فلا ضير إذا صدّقنا هذه الأبيات ونقبل بأنّ الشاعر الجاهلي ايضاً قد استفاد من هذه المفردات حيث كانت مستعملة في العصر الجاهلي؛

٨. وقد أوصى البحث بتدوين «معجم التطور الدلالي في المفردات القرآنية» ومن البديهي أن تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى جهد طويل كما يحتاج إلى دراسة جمعية ولا فردية؛ فنوصي بدراسة الألفاظ الأخرى ورصد تطوراتها.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن فارس، أبوالحسن احمد (١٣٦٦هـ). *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

ابن منظور الأفريقي المصري، جمال الدين بن مكرم (٧٣٠ هـ). *لسان العرب*، بيروت: دار صادر.

أنيس، إبراهيم (١٩٨٤م). *دلالة الألفاظ*، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

أولمان، ستيفن (١٩٨٦م). *دور الكلمة في اللغة*، ترجمة: كمال محمد بشر، القاهرة: مكتبة الشباب.

الجرجاني، ابو الحسن علي بن محمد بن علي (السيد الشريف) (١٩٨٦م). *التعريفات*، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

الجرجاني، عبد القاهر (١٩٣٢م). *أسرار البلاغة*، تعليق: أحمد مصطفى المراغي، القاهرة: مطبعة الاستقامة.

جوادي آملي، عبد الله (١٣٨٦ هـ.ش). *التسنيم*، قم المقدسة: الإسراء.

حمودة، طاهر سليمان (١٩٨٣م). *دراسة المعنى عند الأصوليين*، القاهرة: الإسكندرية، الدار الجامعية للطباعة والنشر.

الخولي، محمد علي (١٩٨٢م). *معجم علم اللغة النظري*، بيروت: مكتبة لبنان.

الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (٢٠٠٩م). *معجم مفردات ألفاظ القرآن*، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر.

الزمخشري، محمود بن عمر (١٩٧٩م). *أساس البلاغة*، بيروت: دار صادر.

السعران، محمود (١٩٦٢م). *علم اللغة مقدمة للقارئ العربي*، القاهرة: دار المعارف.

الطباطبائي، السيد محمد حسين (١٣٩٧هـ). *الميزان في تفسير القرآن*، طهران: دار الكتب الإسلامية.

الطبرسي، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن (١٣٧٩هـ). *مجمع البيان في تفسير القرآن*، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

عبد الباقي، محمد فؤاد (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، قم المقدسة: دار الفكر.

عبد التواب، رمضان (١٩٩٠م). *التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه*، القاهرة: نشر مكتبة الخانجي.

العسكري، أبو هلال (٢٠٠٦م). *الفروق اللغوية*، التعليق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية.

عمر، أحمد مختار (١٩٨٢م). *علم الدلالة*، الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع.

فرانك، بالمر (١٩٩٧ م). *مدخل إلى علم الدلالة*، ترجمة: خالد محمود جمعة، الكويت: مكتبة دار العروبة.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد (١٩٨١م). *العين*، تحقيق: مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، بغداد: دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام.

المبارک، محمد (١٩٨١م). *فقه اللغة وخصائص العربية*، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.

المصطفوي، حسن (١٣٧١ هـ). *التحقيق في كلمات القرآن*، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

وافي، علي عبد الواحد (١٩٤٥م). *علم اللغة*، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

وافي، علي عبد الواحد (٢٠٠١م). *اللغة و المجتمع*، القاهرة.

الموسوعة الشعرية؛ CD ROM.